بقلم : محمود البدوى

كنا نتجه الى الاسكندرية متحدين الطريق الزراعي في جو حار خانق ووسط قوافل من السيارات لا حصر لها في سيارة قديمة من السيارات التي تستعمل عادة في نقل الدخان الى دكاكين الريف .. ثم حولها صاحبها في فصل الصيف الى عربة ركاب ونقلها من منطقة بني سويف الى القاهرة لتعمل على خط المصايف بين القاهرة والاسكندرية .. مستغلا كل الظروف فقد كان أجر الراكب الواحد يرتفع الى ١٥٠ قرشا في المتوسط . ثم ينخفض الى ثمانين قرشا تبعا لتقلبات الأحوال .

وكنا في أول الغسطس والشمس

تلهب وجه تمثال رمسيس القائم في قلب الميدان الذي كان ينظر بعيط وعجب الى حركة المرور المتخلفة التي تجري تحت أقدامه ..

ولا أدري كيف التقطني المنادي وأنا ارتد عن السكة الحديدية . بعد ان الغيت كل القطارات محجورة لمدة يومين والزحام على أشده .. وأدخلني بعمل ساحر في جوف هذه العربة الكئيبة .. كانت مقاعدها بالية ويعلوها التراب وطلاؤها الخارجي قد بهت لونه وستائرها ممزقة وحالتها في الجملة تدعو الى الرثاء .. وركبتها وفي نفسي اشتياق لأن أسير بتجربة جديدة فلم تكن هي أسبب العربات الواقفة على صعيد واحد في الناحية الغربية من الميدان .

ولكني كنت اقف هناك صامتا تحت

الباكيه ولا ادرى كيف أمضى أو أتقدم خطوة ٠٠ عندما امتلأ امامى « تاكسى » وتحرك سريعا ٠٠ ثم تبعته سيارة من نفس الطراز ٠

وفى هذه اللحظة انتشلنى من حيرتى صوت السائق ٠٠ وهو يقول :

ـ تفضل ٠٠ ياسيد ٠٠ هذه عربة مريحة ورخيصة وأجر النفر ١٢٥ قرشا فقط ٠

وكنت قد سمعت منذ لحظات قليلة اثناء وقوفى سعر البورصة ارتفع الى ١٦٠ قرشا ٠

فركبت فى الزاوية اليسرى من الصف الثانى ملاصقا للنافذة ولم أكن أحمل حقيبة ولا ورقة ولا اى شىء على الاطلاق ٠

وكانت الكراسى الاربعة الامامية التى فى الصف الأول محجوزة كلها كما عرفنى السائق ٠٠ وبقى الكرسيان اللذان بجانبى اذ أن العربة معدة لسبعة ركاب وجاء الراكبان سريعا فقد كانت العربات الموجودة فى المكان لا تكفى سبيل الركاب المتدفق ٠

وفى حوالى الساعة الخامسة مساء قدمت الأسرة التى حجزت المقاعد الامامية وكان معهم عفش كثير ٠

وادخلوا العفش فى حقيبة السيارة الخلفية ثم ركبوا امامى ٠٠٠

وركب بجوار السائق مساعد له وكان شابا ٠٠ جم النشاط يتحرك فى سرعة اللولب ٠٠ فلما اشرفنا على مشارف شبرا واتجهنا طريق المزارع استرخى وتجمع على نفسه كالقوقعة ٠٠ ولم يعد يعنيه شىء مما يجرى على الطريق ٠

وكانت الاسرة الجالسة امامى مكونة من شاب نحيل أسمر لم يتجاوز الثلاثين وسيدتين احداهما شابة انيقة فى الخامسة والعشرين من عمرها والأخرى عجوز بلغت الستين ٠٠ ثم غلام فى العاشرة ٠

وكانت السيدة الشابة تجلس أمامى مباشرة وبجوارها الشاب ثم غيروا أماكنهم وابعدوا الغلام عن باب السيارة خشية أن يفتح الباب فجأة ويسقط الغلام ٠٠٠

وكانت السيارة تسير بسرعة متوسطة وكل السيارات التى تمر فى الطريق تجتازها وتخلفها وراءها ٠٠

وأدركنا بعد مسيرة ساعة اننا لن نصل الاسكندرية قبل منتصف الليل فظهر الاستياء على وجوه الركاب ٠٠ وأخذوا يحثون السائق على الاسراع ٠٠

ولكن الراكب الذى بجوارى كان هادئا ولم يبدو عليه شغله .. وبدا لى أنه اعتاد على الركوب فى مثل هذه العربات ..

وقال باسما فى همس وهو يلتفت الى لما وجدنى صامتا مثله ولا اشارك الركاب فى الحملقة على السائق ..

ـ ان الاسكندرية ستظل فى مكانها سواء وصلنا فى أول الليل أو آخره.. ولن يبتلعها البحر .

ـ هذا حق ولكن مثل هذه السرعة لا تناسب هذا العصر .. ولا ترضى الكثيرين اننا فى عصر الصواريخ ..

ـ وماذا يفعل السائق المسكين وما ذنبه ؟ المحرك قديم وهذه هى أقصى سرعة للسيارة .. والامر خارج عن ارادته .. ولو كان فى وسعه أن يطير لطار ..

ولكن هذا الكلام لم يقنع الشاب المرافق للأسرة وتبادل مع السائق كلمات جارحة حتى ان هذا أبدى استعداده عن طيب خاطر بأن يرد لهم العربون الذى تناوله منهم مقدما .. ويتركهم فى مدينة بها دون آخر على الاطلاق

ومثل هذه الحالة من التوتر سارت العربة فى وهج الشمس فى طريق ناعم كالحرير ولكنه مشحون الى أقصاه بالسيارات الذاهبة والراجعة .

وكنت مسترخيا فى الجانب الأيسر مغلقا عينى بنصف اغماضة لا أعبأ بتحركات السيارة أسرعت أو ابطأت فى الطريق ولا أصغيت الى حديث الركاب الذين جلسوا معى فى هذا الحيز الضيق .

وفتحت عينى الى الحقول المزهرة على الجانبين .. والى الذهب البراق على الارض فى كل شبر بطوبه ..

كانت حقول البرسيم يانعة على امتداد البصر حواليها .. والقطن قد تفتح بواره .. وعيدان الذرة قد تطاولت سوقها واطلت قناديلها ..

وعلى مسافة فرسخ واحد تبدو القرى الوادعة .. وقد خيم عليها النخيل .. وحلقت فوقها اسراب من الطير تكسر اجنحتها وهى تتصاوح وتتمايل فى سماء ساكنة ..

وقرص الشمس مازال يلتهب وهناك شىء أشبه بالدخان بدأ يتجمع .. ثم يتبدد صعدا ..

وطلت الصورة رائعة وأخاذة فى هذا المحيط الريفى الجميل ..

وكان الفلاحون منتشرين هنا وهناك فى قلب الحقول وفى أطرافها يعزقون الارض أو يسقون الزرع أو يشقون القنوات الصغيرة.. وسواعدهم المفتولة تبدو عارية تحت لفح الشمس .

ولقد ظل هذا الفلاح على الدهور يحس وهو يعمل فى الارض بساعده انه سيدها ومالكها .. ظل كذلك دوما يشعر بنفسه وبكيانه وبانه سيد هذه الأرض رغم ماحاق به من بؤس وعذاب فى عصور التخلف وعهد الاستعمار .. ظل كذلك صامدا وعاش حتى استرد حريته واصبح مالك الأرض الحقيقى وسيدها ..

وكانت هذه السوانح وامثالها تطوف في ذهني وانا انظر الى الحقول وادخل في تيه من الخيال في كل لحظة حتى عطت عمن كان معي في السيارة ..

ثم تنبهت على حس السيدة التي امامي وكانت تود ان تريح ستر النافذة المزرقة بعد ان خف وهج الشمس وتسالني في صوت ناعم مبحوح ان كان ذلك يضايقني .. فاجبتها في همس بان تفعل ما فيه راحتها وانا في شغل عطلة تريح السيارة بيدها الرخصة ..

وقد حملتني هذه الحركة اتجه ببصري الى داخل العربة .. واتفرس في وجوه الركاب .

كان الراكب الذي يحاذي سيميا بادي الطيبة له عينان ودعتان وبشرة سمراء وترتدي بدلة رمادية واسعة .. وكان خفيض الصوت قليل الكلام .

اما الشاب الجالس بحواره مما يلي النافذة من نفس الصف فقد كان ثرثارا عصبيا يمضغ رماد سجارته دوما بيد مرتعشة .. وكان في رامسه عينان

قلقتان بادئ الشرم .. وله جبين مقطب وسحنه عابسة كانه يحمل هم الدنيا على كتفيه .

وكان يحمل في يده حقيبة اوراق صغيرة ظل يفتحها ثم يطويها .. كانه ذاهب للمرافعة في قضية لم يستعد لها .

وكان يجلس امامه شاب من طرازه وسنه ويبدو لي انه عائل هذه الاسرة الجالسة امامي كان نحيلا قاسي النظرة طويل الوجه يرتدي بدلة داكنة على قميص مفتوح .. ويشاور بيديه وهو يتحدث .. وكان عليظ الطبع ظل يفتح النافذة ويغلقها تبعا لهواه دون ان يسال باقي الركاب عن رايهم .. وجلس ملاصقا له الغلام وكان كثير الشقاوة والحركة ولكنه مرح وضحاك

كانت السيدة المحور تضمه الى صدرها ولم اكن استطيع ان اعرف اهي ام للشاب أم للسيدة الشابة الجالسة امامي أم هي والدتهما معا ..

فلم يكن يعنيني الامر في كثير ولا كان من طبعي الفضول ..

وكانت الشمس لا تزال تلتمع وكل شيء احمر حولي .. ودخلنا في تيه من شجر الصفصاف ..

وبدا الجو يتلطف واحسست بشعر السيدة التي امامي يصافح جبيني وتهتز سوالفه مع الريح .

وكان القميص الاسود الذي اختارته لتسافر به والذي يلف صدرها يخفي عن عيني كل مفاتنها ولكنه يبرز تحت

نظراتي العبق الساري وسرة في لون الحليب الذي علاه الزبد .

وشاهدته ـ وهي تستدير لتحادث حارسها شامة صغيرة سوداء ـ على خدها الايمن زادت الخد الأبيض فتنة . وجعلت خط الانف الدقيق يتألق .

وكان حرس صوتها مسموعا .. وشفتاها مضمومتان رق لون الكرز ..

وكان شعرها الاسود ساكنا ثم اخذ يتموج لما داعبه هواء الغروب .

وتحت تاثير خاطر الح علي بعنف أخذت أبحث بعيني في اصابعها عن خاتم الزواج او الخطوبة ولكن ضاعت نظراتي في تيه من الخجل فارتددت خائبا ولم اتاكد من شيء .

وكنت أعرف ان هذه الرحلة على قصرها ستحرك مشاعري وتزيل تبلد روحي .

ووجدت نفسي في حالة من الانشراح والتفتح .

وادركت اننا جميعا طلبنا السائق .. ولم نسمعه وهو يشير في سبيل راحتنا وبلوغنا المدينة التي نقصدها في امان كلمة طيبة واحدة وان استياءنا من بطئه حماقة ..

انا سنبلغ الغاية مهما طال السفر ..

وكان السائق مقبلا بوجهه على الطريق وقد استغرق كل حواسه لان الليل دخل وأصيئت المصابيح .

وكنت اخشى وانا ارى الزرقة الصافية في السماء .. وشعر الحسناء التي امامي يكون حاله لوجه غدا في الليل وفي الضوء الشاحب كالقمر .

واوغلنا في الليل واشتد الظلام .. ثم لاحت انوار طفقا من بعيد .

ومال بنا السائق بعد قليل الى المقهى الصغير المعد كاستراحة .. على الطريق .. ولم ندخل المدينة .

وخرجنا جميعا من السيارة لنستريح في المقهى .

وجلست وحيدا اشرب فنجانا من القهوة .

وكانت الاسرة التي ترافقني في السفر تجلس في جانب من المكان .

ورايت السيدة الحسناء في مواجهتي هناك .. وكانت ترمقني من بعيد وكأنها تسألني

ـ لماذا ابيض شعرك قبل الأوان ؟ .. ولماذا تجلس وحيدا ... ؟

والواقع انني كنت اقرب من كل شيء اليها .. وكنت قد ادركت تماما أن السبب الاول الذي جعلني استطيب الرحلة ورحبات العربة هو وجودها .. وان أنفاسها المعطرة هي التي حولت الجو كله الى اريج من العنبر .

***

وظللت الاحظهم بعيني وغاب عنهم الشباب ثم رجع قد ضموا جميعا .. وانخلع قلبي وانا اراهم ينقلون حقائبهم الى سيارة سوداء من طراز شيفروليه .. كانت واقفة في جانب من الطريق .

وعدت الى العربة وحدي ومعي الرجل السمين الطيب واصبحنا الراكبين

.. الوحيدين فقد طار الشاب الأحمر أيضا وترك السيارة وانطلقنا متمهلين على الطريق في الليل الاسود .

***

وكان الهواء قد بدأ يهب ويطيب ولكن الليل قد ازداد سوادا ووحشة .

وكانت نجوم صغيرة تتدلى من فوق شجرات النخيل العالية هناك والمنازل القائمة في القرى الموحشة التي كنا نمر بها .. ولم يكن شيء يمكن ان يديب الوحدة والصمت الذين كانا يلفاني وأنا أنظر من خلال النافذة الصغيرة الى الارض السوداء التي تطوى تحتي والى السماء الصافية فوقي .

وكان خط السماء الازرق قد التوى هناك في الافق الغربي وبدأت الجهامة المطبقة ..

وقد نسيت السائق ومساعده كما نسيت جاري في العربة ..

وكانت أسلاك البرق والتليفون القائمة بجانبي على الطريق قد غابت في الظلمة .

وبدا لي ان السيارة أسرعت بعض الشيء في طريق ناعم كالحرير ويقوم على جانبه شجر الصفصاف .

ثم سمعت صوت القطار السريع يصفر على الشريط الحديدي ويطوى الارض طيا .

وخيم السكون .. واشتد الظلام حتى أن العين لم تكن تلتقط أي اشارة للحياة على طول الطريق .

وكان خفيف الريح الناعم قد انعشني .

وكانت حواس السائق متيقظة على الطريق ..

وكنت قد رفعت الى مخيلتي صور رفاقي السابقين في السفر صورة السيدة التي كانت تعطر المكان امامي واصبح مقعدها الآن خاليا .

وكنت أسترجع في الليل .. وانوار السيارات التي تاتي في الاتجاه المضاد تغشى البصر ثم تتركنا في ظلمة رهيبة .

وظللنا على هذا المنوال نطوى القرى والمزارع حتى خلفنا مدينة دمنهور .. وراءنا بمراحل وبدا الليل أشد سوادا ورهبة كانت السماء صريرة النجم حالكة الظلمة حتى اختفت عن أعيننا كل القرى والكفور ..

وكانت أسلاك البرق السوداء فوقنا صامتة ثم حدث تئن وتتوجع عندما سمعت عليها الريح .

***

وعلى ضوء العربةالكشاف لمحنا شيئا اسود منحرفا عن الجانب الايمن من الطريق .. ولما اقتربنا وسلطنا عليه الضوء .. وضح كل شيء واحسست برجفة سقط لها قلبي بين ضلوعي .. فقد وجدت رفاقي في السفر الذين كانوا معنا منذ ساعة .. وكانت السيدة الباكية تحتضن رأس الشاب .. وكان هذا قد اصيب في رأسه وصدره اصابة بالغة وغاب عن وعيه .

والمجور تمسح على رأسه بالماء وتحرك يديه .

وكانت العربة التي يركبونها مهشمة ومات سائقها .. والعربة الكبيرة التي

صريتها فرت صد الحادث في جنح الظلام .. دون أن يلتفت رقمها أحد ..

وكانت اصابة الغلام والسيدتين خفيفة .. أما الشاب فقد كانت اصابته بالغة ومات السائق في الحال .

وكان الشاب حالما بجوار السائق في مقعد القيادة وحاولتها الضربة من جنب سريعة وقاتلة .. وفرت العربة الاخرى ..

وكان الحادث مروعا فقطعوا الليل بصراخهم ... ثم صمتوا ومرت عربة فرات حالهم ونقلت الخبر الى نقطة المرور التي طلبت عربة الاسعاف في الحال والبوليس للتحقيق .

***

وجاءت عربة الاسعاف بعد ساعة .. وحملوا المصاب على المحفة ..

ووجدت من اللياقة ان اركب مع السيدتين والغلام عربة الاسعاف ولا أتركهم وحدهم في هذا الليل وجلست بجانب السيدة الشابة على الدكة الخشبية والعربة تمضي في الطريق وجرسها يقرع اذن الليل .

وكانت السيدة منكسة رأسها ملتاعة وفي عينيها يتحير الدمع وعلى جبهتها جرح قد غسل وطهر بمحلول أحمر .. فرادها فتنة .

وكانت تنقل عينيها بين الرجل المصاب وبيني .. وكنت مطرقا واجما .. استمع الى حفيف الريح .. وأفكر في ذلك الشيء السرمدي الذي يحركنا ولا نراه ويرسم لنا خط الحياة .. وفكرت في القدر .. وفكرت في الموت والحياة .. وسمعت صوتا هاتفا حيل الى أنه صوت الشيخ رفعت .. وكان يرتل القرآن بصوت حزين مؤثر بالغ حمد الاعجاز فاغمضت عيني تماما ورحت في دوامة من الأسى ..

وتحرك المصاب حركة خافتة .. فمدت السيدة اليه يدها وهما لمحت خاتم الزواج في اصبعها لاول مرة .. فاطرقت الى أرض السيارة ..

وكانت السيدة الاخرى المحجوز صامتة ووجهها جامدا والغلام نائما .. ورجال الاسعاف قد شغلوا عنا بالحديث في شئونهم الخاصة .

ووصلنا الى الاسكندرية وكانت متلألئة بالانوار لم تكن المدينة الحبيبة تحس بما جرى في الليل وهي مثل الحياة أبدا تسير ولا تعبأ بما يجري فيها او تتخلف عنها ..

ودارت السيارة وصعدت التل الى المستشفى الاميرى ..

وتعدم اكثرات وتروح حالية من كل عاطفة انسانية تلقى الطبيب المصاب .

***

وفى ردهه المستشفى راتنى السيدة الشابة اروح واجىء صامتا احرس .. ورأيتها واقفة بكامل ملابسها كانت طويلة جدا ومحلولة الشعر .. وقد روعها الحادث وهز أعصابها ولكنها كلما واجهتني ووجدتني واقفا على باب المصاب .. كانت تود ان تقول لى :

ـ تفضل واستروح كفاك تعبا ..

ولكن لسانها كان يخونها .. وكنت أعرف ان زوجها سيموت بعد ساعة .. ولا أحب أن أسمع صراخها .. فأغمضت عينى وجلست فى الردهه وكانت تسبح فى ذلك الضوء الباهت والسكون يخيم على المستشفى وأحسست بريح الموت تسللت الى الخارج ..

***

واتجهت الى البحر .. وكان قلبى يهدر مثل البحر تماما وكنت اعرف أن الموج كفيل بأن يغسل أحزانها ولكن متى يحدث هذا ومتى ارجع اليها .. واقترع نابها فى امسية من امسى الخميس .